رجلان من دمشق

معتصم أبوالغيث

أمام إحدى المقاهي في دمشق القديمة، كان يجلس "عبدالله" لبيع الحمص المسلوق (البليلة)، وبداخل ذلك المقهى كان صديقه الحميم "سمير" يعمل حاكياً للقصص (حكواتي)، لم يكن العمل في قُرب بعضهما الشيء الوحيد الذي يتشاركه الصديقان في حياتهما، فهما كذلك يتشاركان السكن في غرفةٍ واحدة، بل وإذا قرر أحدهما الذهاب إلى مكانٍ ما، فإن على الآخر كذلك أن يُشاركه نفس الطريق، وإلا ما أستطاع صديقه الذهاب حيث يريد؛ إذ أن عبدالله مكفوفٌ فاقدٌ للبصر، وصديقه سمير قزمٌ مصابٌ بالشلل، وللسير في شوارع مدينة دمشق، يحتاج سمير لأن يحمله صديقه على ظهره، فيما يعتمد عبدالله على صديقه المُبصر لإرشاده وتحذيره من الحفر والعوائق.

أحدهما يرى والآخر يسير، بهذه الطريقة تشارك الصديقان حياتهما لتجاوز ما يصيبهما من إعاقة، وتشاركا كذلك الكثير من تفاصيل حياتهما الأخرى، وفي إطار كل ذلك التشارك بينهما والتعاون، هما لم يكونا مشتركان في ديانتهما المختلفتان، ولم يجدوا في أنفسهم من ذلك، ما قد يمنعهم من تشارك الحياة مع بعضهما. لقد استمر سميرُ النصراني وصديقه المسلم عبدالله، في حياتهما المشتركة حتى تقدم بهم العمر، وكعادة الدنيا الزائلة، جاءت المنية ذات يومٍ فأخذت روح سميرٍ معها، وتركت صديقه عبدالله في وحدته مكلوماً محزوناً، جلس الصديق المكلوم آسراً نفسه في غرفته، جلس فيها باكياً يواسي نفسه من فقدان صديقه وشريك حياته، وقبل تمام الأسبوع الأول لوفاة صديقه، وُجد هو الآخر وقد فاضت روحه إلى بارئها، فلعله ذهب إلى صديقه يشاركه حياة البرزخ، كما شاركه في الحياة الدُنيا.

لم تكن هذه الأحداث قصةً كتبها خيال مؤلف، بل إنها وقائع حياةٍ صنعها رجلان بسيطان من دمشق، وتلك الصورة المرفقة بالمقال، هي صورةٌ التقطت لهما في العام (١٨٨٩م)، وفيها يظهر عبدالله حاملاً لصديقه سمير على ظهره. لقد وُجد في هذين الشخصين البسيطين، مثالاً عظيماً يُحتذى ويُستشهد به على حاجة الإنسان لأخيه الإنسان، وأن اختلاف الأديان لا يُشكل سبباً لخلاف الإنسان مع الإنسان، وأن علينا جميعاً أن نحيا بحب بعضنا وتعاوننا، تعاونٌ لا نترك معه أيادي بعضنا إلا حين يأتينا الموت.

إن التعايش الإنساني ضرورةٌ ملحةٌ لاستمرار الحياة وسيرها، فإننا وإن اختلفنا في الفكر والمعتقد، فإن ذلك ليس إلا اختلافاً واحداً فقط، في حين أن هنالك الكثير مما يجمعنا ونحتاج لتشاركه مع بعضنا البعض، فلماذا ندمر حياتنا، ونترك كل ما يجمعنا فيها، في سبيل قلةٍ من الاختلافات، اختلافاتٍ لا يضرنا وجودها، بقدر ما يضرنا التعصب لها. وإذا كان التعايش بين الناس ممكناً وضرورياً مع اختلاف دياناتهم، فهو ومن باب أولى أوجب مع الاختلاف فيما هو أبسط من ذلك وأدنى، من مذاهبٍ أو مناطقٍ أو أعراقٍ وغيره.

ختاماً: لا يُمكن أبداً للإنسان أن يعيش لوحده، وبغير التعايش مع الناس على اختلاف مشاربهم، لن يجد الإنسان أماناً ولا اطمئناناً في حياته ومعيشته، وإن أشد الناس ظُلماً لنفسه والآخرين، من أراد العيش بلا تعايشٍ، وأراد للناس جميعاً أن يكونوا مثله وإلا فلا، فلو أن ذلك هو الأصلح لمعاش الناس وحياتهم، لكان الحكيم سبحانه جاعلاً ذلك بقدرته ورحمته، ولكنه عزوجل خلقنا باختلافنا لأنه الأصلح لنا، وأمرنا بالتعايش بيننا لإتمام فضله ونعمته علينا.